مقدمة لدراسة الصراع العربي الإسرائيلي

لمن هذا الكتاب؟

- لمن يريد معرفة تاريخ الصهيونية.
- للمهتمين بجذور الصراع العربي الإسرائيلي.
- للراغبين في معرفة قواعد اللعبة السياسية والتحكم بالشعوب.

معلومات عن المؤلف:

عبد الوهاب المسيري: كاتب ومفكر عربي، وُلد في دمنهور 1938، حصل على درجة الماجستير عام 1964 (من جامعة كولومبيا)، ثم على درجة الدكتوراه عام 1969 من جامعة رَتْجَرز Rutgers ، كما عمل أستاذًا زائرًا في أكاديمية ناصر العسكرية، وجامعة ماليزيا الإسلامية، وعضو مجلس الخبراء بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام (1970 – 1975)، ومستشارًا ثقافيًّا للوفد الدائم لجامعة الدول العربية لدى هيئة الأمم المتحدة بنيويورك (1975 – 1979)، تُوفِّي فجر يوم الخميس الموافق 3 يوليو/تموز 2008 بمستشفى فلسطين بالقاهرة عن عمر ناهز السبعين عامًا بعد صراع طويل مع مرض السرطان.

ومن أهم أعماله: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.. نموذج تفسيري جديد (ثمانية مجلدات)، رحلتي الفكرية.. سيرة غير ذاتية غير موضوعية، في البذور والجذور والثمار، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة (جزءان).

مقدمة:

السياسة لا تعرف الأصدقاء الدائمين، ولا حتى الأعداء الدائمين، ولكن فقط تعرف المصالح الدائمة!

يعد هذا الكتاب تشريحًا للعقلية الإمبريالية الغربية، كما يعد في الوقت ذاته سجلًّا يتناول الجذور التاريخية للصراع العربي الإسرائيلي ويحلِّل المعطيات والأسباب والنتائج التي أسهمت في نشأة الحركة الصهيونية، كما يتعرَّض بالنقد للمبادئ الحاكمة للمسألة اليهودية، ويلقي الضوء على سياسات الدول العظمى وكيف تتم صياغة العلاقات بين الدول...فهلم بنا نسبر أغواره

أولًا- إشكالية التاريخ والهوية اليهودية:

يطلق المؤلف أولى طلقاته على البروباجندا اليهودية، حيث يعمد بطرح إمكانية وجود تاريخ يهودي مستقل للنقاش إلى خلخلة المسألة اليهودية من جذورها الأصلية، فاليهود بحكم شتاتهم وتناثرهم بين الأمم المختلفة لم تجمعهم يومًا ما حضارة مستقلة، ولذا ليس ثمة تاريخ واحد يربطهم جميعًا، فكل مجموعة قد عاشت تاريخها المستقل عن الأخرى في ظل الحضارة التي اكتنفتها، وعلى ذلك فالحديث عن مصطلحات معبأة أيديولوجيًّا كـ"التاريخ اليهودي" و"الهوية اليهودية"، هو محض سراب تمامًا كالحديث عن يوتوبيا في الفكر الأفلاطوني! ويظهر ذلك جليًّا في الاختلافات اللغوية والثقافية، بل وحتى الحضارية بين اليهود بعضهم وبعض كنتيجة لاختلاف الحضارات التي اكتنفتهم خلال حقب التاريخ المختلفة، وترتبط فكرة الشتات لدى اليهود بمسحة دينية نوعًا ما، إذ يؤمن اليهود بعقيدة المخلِّص الذي سيأتي في آخر الزمان ليجمع شتاتهم، ومن هنا يُفهم أن الشتات أقرب إلى الاختيار منه إلى الإكراه كما يُفهم سبب بعض الدعاوى اليهودية من قبل المتديِّنين والأصوليين في رفض ما يسمى الآن بدولة إسرائيل.

وكنتيجة لهذا التخبُّط الإثني والعرقي وتعدُّد الموروث الثقافي برزت مشكلة تحديد الهوية اليهودية، فنشأت اتجاهات عدة للإجابة عن سؤال مَن اليهودي؟ وتمثِّل أبرز تلك الاتجاهات في اللجوء إلى المعيارين العرقي والعقدي، وتبعًا لذلك يُعرف اليهودي أنه من وُلد لأم يهودية أو تهوَّد بحسب الشريعة، ويتفرَّع عن كلا المعيارين مجموعات مختلفة من اليهود كالآتي:

فمن الناحية العرقية ينقسم اليهود إلى: السفارديم، ويهود الشرق والعالم الإسلامي، والإشكناز، ومن الناحية العقدية ينقسم اليهود إلى: يهود إثنيين، وهم من انسلخوا من موروثهم العقدي والديني وفقدوا مظاهر العبادة والتنسُّك في معاملاتهم، ويهود مؤمنين، وهم من اعتنقوا أو تمسَّكوا بصورة أو بأخرى ببعض موروثهم العقدي ويمكن تقسيمهم إلى: الأرثوذوكس والإصلاحيين والمحافظين.

- ----------

ثانيًا- يهود أم جماعات وظيفية؟

تتشكَّل النفس البشرية وفق المعطيات المحيطة بها، من هنا كانت الأقليات تتمايز عن محيطها ببعض الاختلافات في التكوين النفسي، فكونهم أقلية يضعهم تحت ضغط مستمر، لذا فقد يبرعون في بعض الوظائف بدافع التميز وتكوين هوية تخرجهم من دائرة الضعف إلى مراكز قوة، خصوصًا إذا كان الظرف المجتمعي يؤيد ذلك، من هنا كانت البذرة الأساسية لفكرة الجماعة الوظيفية التي تتكوَّن من مجموعة من الأفراد تربطهم مصلحة وظيفية مشتركة، وبسبب التفاعل بين أفراد تلك الجماعة بعضهم مع بعض يتم تلقائيًّا تشكيل العقل الجمعي الخاص بهم وإدارته لا شعوريًّا وفقًا لدورهم الوظيفي.

ونتيجة للجدل القائم بين الشخصية اليهودية وواقع مجتمعاتهم نجد أن مفهوم الجماعات الوظيفية انطبع بنسبة كبيرة على شكل العلاقة المتبادلة بين الأقليات اليهودية وواقعهم عن طريق كلٍّ من: التمركز حول الذات، وهو التعصب الأعمى لذواتهم، فهم خلعوا على أنفسهم وصف "شعب الله المختار" كنتيجة لشعورهم بالتفرُّد في الجنس وتمايزهم عن باقي أفراد الجنس البشري، وكذلك العزلة والغربة، فنتيجة لعزلة اليهود في مجتمعاتهم الغربية نشأ ما يعرف بالمجتمع الموازي لهم، فقد أقاموا نظامهم الاقتصادي الخاص المتمثِّل في تجارتهم للسلع والعملات، بل حتى المعلومات بين أقطار البلدان المختلفة.

ثم تأتي الهوية الوهمية، إذ يعد العامل العقدي المحدَّد الأول في حياة اليهود، فلطالما انتمى اليهود إلى عاصمتهم الروحية (صهيون)، وسبَّب ذلك لهم انفصالًا عن الزمان والمكان، مما عمَّق لديهم الشعور بالغربة وصنع هوية مصطنعة بديلًا عن قوميات مجتمعاتهم، وهناك النفعية التعاقدية، فعلى مر التاريخ نشأت علاقة نفعية بين اليهود بوصفهم أقليات وبين مجتمعاتهم، إذ استغلتهم الحكومات المختلفة في أدوار معدَّة لهم مسبقًا، وفي المقابل استفاد اليهود نوعًا ما من السلطة والنفوذ وبعض المكاسب المادية، وتأتي أخيرًا ازدواجية المعايير، وهي ما يُعبَّر عنها بسياسة الكيل بمكيالين، فنتيجة لما سبق اصطنع اليهود لأنفسهم وضعًا متفردًا مع دعم ذلك ببعض النصوص التوراتية المحرفة، وأصبح تبعًا لذلك يجوز لهم ما لا يجوز لغيرهم.

ثالثًا- الصهيونية وصناعة الكذب:

اليهود اليوم أشبه بسحرة فرعون فتراهم يحاولون اللعب بالعقول عبر خلق تاريخ يهودي مصطنع، فإطلاق مصطلحات مثل "انعزالية اليهود" و"المنفى" و"شعب بلا أرض" و"الشتات اليهودي" وترديدها بصورة مستمرة، وهي تفترض مركزية فلسطين (صهيون) بصورة أو بأخرى يهدف إلى إعادة تشكيل الوعي المجتمعي لتقبُّل المسألة اليهودية ومحاولة لصنع جدار سميك من الدخان لتعمية الرأي العام الدولي عن جرائمهم، فاليهود اكتنفتهم حضارات مختلفة بحيث أصبحوا جزءًا من نسيجها المجتمعي وتشرَّبوا ثقافتها وعاداتها وتقاليدها بغض النظر عن بعض الممارسات التي طالتهم فهذه المضايقات لم تسلم منها غالبًا جميع الأقليات على مر التاريخ.

أما دعوى مركزية فلسطين "صهيون" فدعوى باطلة ليس لها ما يؤيّدها تاريخيًّا فلطالما فضَّل اليهود البقاء في موطنهم أو حتى الهجرة إلى أوروبا وأمريكا عن الذهاب إلى فلسطين، ولذلك يمكن القول إن فكرة الشتات في حد ذاتها تحتاج إلى إعادة نظر، كما أن إطلاق وصف الشعب يتنافى مع كونهم أقليات في دولهم.

أما قضية الهولوكوست التي تمثَّلت في إبادة ستة ملايين يهودي على يد النازية الألمانية فقد ذاع صيتها على نحو كبير ووظَّفتها تلك الآلة الإعلامية الخبيثة لخدمة المصالح الصهيونية، فهي إن صحَّت لا تعدو أن تكون فصلًا من قصة الإبادة الجماعية للسكان الأصليين والتي شاركت بعض الدول، الموصوفة بالتقدم، في كتابة بعض فصولها بمداد من دماء ضحاياها! ولكن يجدر بنا السؤال عما إذا كان اختفاء هؤلاء اليهود بسبب الإبادة النازية أم بسبب عدة أمور مشتركة تمثَّلت بعضها في إخفاء بعض اليهود هوياتهم في السجلات الرسمية والانخراط في عبادات جديدة بالإضافة إلى تزايد معدلات الزواج المختلط ولا ننسى بالطبع الظروف القاسية وغير الآدمية التي صاحبت الحرب العالمية الثانية.

وعلى ذلك يمكن القول إن فكرة البكائية التي تتعمَّد البروباجندا اليهودية إذكاءها بتقمُّصها دور الضحية واستغلال الآلة الإعلامية الضخمة لمحاولة التملُّص من المسؤولية الجنائية والإنسانية واكتساب تعاطف الدول هي فكرة واهية وليس لها أي أساس تاريخي أو ثقافي، بل العكس هو الصحيح، فالذئب لن يكون حملًا وديعًا في أي يوم من الأيام.

رابعًا- الصهيونية والمسألة اليهودية:

هناك الكثير من الخلط حول العلاقة بين اليهودية والصهيونية، فاليهودية ديانة سماوية بخلاف الصهيونية التي لا تعدو أن تكون حركة سياسية في الأساس اتخذت من الشعائر التوراتية ستارًا تواري به سوأتها، فاليهود ليسوا أمة واحدة، بل إن بينهم الكثير من الاختلافات المذهبية التي أثَّرت بدورها في نظرتهم إلى الحركة الصهيونية، فهناك المؤيدون، وهؤلاء قد تختلف نواياهم من اعتناق للفكرة الصهيونية تبعًا لمبادئ عقدية إلى الطمع في تحقيق مصالح خاصة، والرافضون، وهذا الرفض قد يتخذ أيضًا شكلًا عقائديًّا أو فكريًّا، أو التملُّص منها، وأحيانًا يصل الأمر إلى انتقادها، وغير المكترثين، وهذا هو الموقف السائد لكبار مثقفي اليهود، فهم يرون أن الصهيونية لا تعنيهم في شيء.

وبمزيد من التحليل نجد أن "الصهيونية" مجرد فكرة جندتها الدول الغربية، بعدما تقلَّص دور الجماعات اليهودية الوظيفية في دولهم القومية كنتيجة لتطور المجتمعات واختصاص الدول بالوظائف التي كانت يومًا ما حكرًا على اليهود، لا سيما بعد قضية الإصلاح الديني ونشأة النظام المصرفي الحديث وتطوُّر سبل التجارة الدولية، بل زاد الأمر حين أضحى ضرر اليهود أكبر من نفعهم، كما ساعدت بعض الظروف التاريخية والمعطيات الحضارية على توسيع رقعة تأثير الفكرة الصهيونية، ولا ننسى دور الإمبريالية الغربية التي مهَّدت الطريق على نحو كبير، وعملت على زرع الصهيونية وتحويلها من مجرد فكرة إلى واقع متجذِّر.

ومن هنا كان الحل الوحيد المطروح وفقًا للعقلية الاستعمارية هو العمل على إخراج تلك الجرثومة اليهودية خارج دولهم، وتسخيرهم لخدمة مصالحهم الخاصة، واتجَّهت الأنظار إلى الإمبراطورية العثمانية التي كان يطلق عليها في ذلك الوقت "الرجل المريض"، فبدأت عملية تقسيم الكعكة العثمانية بين الدول الغربية العظمى، والبحث عن مكان استراتيجي "فلسطين" لتوطين الفائض البشري اليهودي، وخلق وظيفة جديدة لهم تمثَّلت في خدمة المصالح الغربية.

خامسًا- التشريح التاريخي للصهيونية:

بدأت إرهاصات الفكرة الصهيونية في بدايتها كفكرة غربية - وليست يهودية - خلال القرن السادس عشر حيث ظهرت في بعض كتابات الساسة والمفكرين، وكان ما يعرف بالإصلاح الديني والانقلاب التجاري وظهور الرأسمالية التجارية وما صاحبها من كشوفات جغرافية سببًا في إذكاء تلك الإرهاصات، ولكنها لم تعدُ كونها مجرد فكرة عائمة، إلى أن جاء القرن

التاسع عشر وقامت الثورة الصناعية "الرأسمالية الصناعية" وما نتج عن ذلك من تراكم لرؤوس الأموال وتنامي النزعة الاستعمارية مع غروب شمس الدولة العثمانية في ذلك الوقت، كل ذلك أسهم في تغيير النظرة السياسية لدور اليهود رأسًا على عقب! بذلك بدأت تتبلور الفكرة الصهيونية وبدأ العمل على توظيف اليهود لخدمة المشروع الاستعماري وتحويلهم إلى عملاء.

من هنا تلقَّف اليهود الفكرة، لكن تعدَّدت أفكارهم نحو تحقيقها نتيجة تعدُّد مشاربهم، لكن المشترك بينهم أن قرار فرض الصهيونية كواقع عملي كان قد اتُّخذ بالفعل فلم تعد الفكرة من قبيل الترف الفكري، ومن هنا ظهر دور "هرتزل" الأب الروحي لما يسمى بالدولة اليهودية، فهو وإن لم يكن أول من أخرج الفكرة الصهيونية للوجود لكنه كان أول من رأى حتمية دور المشروع الاستعماري الغربي لتحقيقها خلال مؤتمر "بازل" في سويسرا، الذي تمخَّضت عنه الديباجة الأساسية للمشروع الصهيوني الوليد.

ورغم معارضة أثرياء اليهود في بادئ الأمر فقد تبدَّلت الأحوال بعد الحرب العالمية الأولى وبعد اختفاء الدولة العثمانية كقوة سياسية من على الساحة العالمية، ما شجَّع بريطانيا على إصدار وعدها الشهير "وعد بلفور"، وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وتقلُّد الولايات المتحدة عرش المشروع الإمبريالي بلا منازع بالإضافة إلى تركز اليهود على نحو كبير في أمريكا انتقلت حضانة المشروع الصهيوني الوليد من بريطانيا إلى أمريكا، وكان ذلك سببًا في زرع جرثومة الصهيونية في الجسد العربي بصورة رسمية عام 1948، ورغم كل الحروب التي خاضتها الدول العربية لم تنجح إلى الآن في اقتلاع جذور تلك الشجرة الخبيثة من الأرض العربية.

سادسًا- السمات العامة للحركة الصهيونية:

الحركة الصهيونية منذ نشأتها كفكرة مجردة وحتى فرضها بالقوة كواقع أليم، مرَّت بتجارب عديدة أكسبتها بعض السمات منها: أنها حركة استعمارية، فقد بدأت الصهيونية كأداة سياسية للمشروع الإمبريالي الغربي الذي عمل على زرعها بالقوة داخل النسيج العربي تحقيقًا لمصالحه الشخصية التي تمثلت في كسب نفوذ سياسي واقتصادي، وكذا صرف النظر عن الاضطرابات الداخلية ونشر أيديولوجيات معينة، وأنها حركة استيطانية، إذ عمل الاستعمار الغربي منذ اللحظة الأولى على توطين اليهود في فلسطين كنوع من تصدير المشكلة خارج بلادهم، ورغبةً في تحقيق نوع من الوجود العسكري واتباعًا لسياسة فرض الأمر الواقع وقطع التواصل بين السكان الأصليين عبر المستوطنات، وهي حركة إحلالية، فقد دأبت الصهاينة على إحلال وجودهم محل الفلسطينيين عبر عمليات الإبادة والطرد والإبعاد وتهميش أصحاب الأرض، بل وصل الأمر إلى حد إنكار تاريخ السكان الأصليين وربط تاريخ فلسطين بالوجود اليهودي فقط وتصويرها بأنها مجهولة الهوية، والحركة الصهيونية حركة توسعية، فقد نشأت الصهيونية تحت مظلة استعمارية ترى العالم كلاً مباحًا لها وفقًا لمصالحها الخاصة، كما أنها وعدت اليهود بإقامة دولتهم، ومن هنا كان عنصر "الأرض" إحدى ركائز الفكرة الصهيونية لزيادة الكتلة اليهودية في فلسطين.

ورغم الاختلاف الهائل بين التيارات الصهيونية فهناك ما يمكن تسميته بـ"الإجماع الصهيوني"، أي المبادئ المشتركة بين جميع التيارات والأحزاب والجماعات الداخلية للصهاينة وهي بمثابة المبادئ الحاكمة للمشروع الصهيوني، وأولها أن اليهود شعب واحد، وفلسطين أرض الميعاد، كما أن القدس هي العاصمة الوحيدة والأبدية للدولة الصهيونية، ووجود الفلسطينيين أمر عرضي يجب إزالته، وسياسة الأمر الواقع هي السياسة الوحيدة التي يجب اتباعها مع العرب، وأن تفكيك المستوطنات القائمة بالفعل بمثابة تفكيك للوجود الصهيوني برمَّته، لذلك لا بدَّ من المحافظة عليها وزيادتها على نحو مستمر، وأن الكيان الفلسطيني الذي سينشأ يجب أن يكون مقوض السيادة منزوع السلاح، حتى لا يمثل نوعًا من التهديد مستقبلًا، وأن الدعم الغربي وبخاصة الأمريكي هو ماء الحياة للشجرة الصهيونية، لذا يجب تحقيق مصالح الدول الداعمة لضمان استمرار الدعم.

وختامًا:

وبعد الطواف حول الأفكار الرئيسية التي تضمنها الكتاب يمكن القول أن موجة التطبيع القائمة حاليًا والتي تعمل على دمج اليهود في الوسط العربي تعدُّ شذوذًا على الطبيعة السيكولوجية للكيان الصهيوني، وتهديدًا وجوديًا للهوية اليهودية، لأن معناها إنسلاخ اليهودي من مجتمعه المغلق والتخلي عن الثوابت العقائدية والنفسية للذوبان في في بيئة مصادمة تمامًا للموروث النفسي للمجتمع الصهيوني، فمن الناحية السيكولوجية تعد حالة الحرب عامل أمان للحفاظ على تماسك المجتمع داخليًا والإرتفاع عن الخلافات الكبيرة والمزمنة بين أطياف المجتمع المختلفة، فالصهيونية رغم نجاحها في فرض نفسها، إلا أنها تواجه أزمات أبرزها هوية الدولة والخلافات المذهبية، وتطبيع الشخصية اليهودية وماهية اليهودي وتحجُّر الثقافة الصهيونية، بالإضافة إلى الأزمة السكانية والاستيطانية، مما يمثِّل تحديًا ينذر بانفراط العقد الاجتماعي الصهيوني، ولذا فإسرائيل لن تستمر إلا بعدو يحقق لها الاستقرار الداخلي.